

دور ماسينيسا في استرجاع أراضي أسلافه من قرطاج وانعكاساتها
**Massinissa's role in reclaiming his ancestors' lands from Carthage
and its repercussions.**

صونية شلالى جامعة باتنة 01 soniachellali.com@gmail.com

تاريخ الارسال: 2025-11-13 تاريخ القبول: 2026-01-28 تاريخ النشر: 01 جوان 2026

ملخص:

يتم الإشارة في الملخص إلى أهمية البحث وإشكاليته وأهم النتائج المتوصل إليها. بدأ ماسينيسا يوجه أنظاره شرقا نحو الأراضي القرطاجية، بعدما وحد نوميديا ووطد سلطانه عليها، خاصة وأن معاهدة 201 ق.م لم تحدد الحدود الفاصلة بين مملكته والممتلكات القرطاجية، وإنما خولت له حق استرجاع ما ملكه أسلافه حتى داخل الأراضي القرطاجية، وانتهاز أول فرصة سمحت له واخترق إقليم أمبوريا عام 193 ق.م، فكانت هذه العملية حسب رأي أحد المؤرخين بمثابة جس النبض لمعرفة ردة الفعل القرطاجية وموقف مجلس الشيوخ الروماني، وتوالت عمليات استرداد الأراضي من طرف ماسينيسا، الذي ضرب شكوى قرطاج لروما ومحاولات هذه الأخيرة في تهدئة الأوضاع بين الطرفين عرض الحائط، مستغلا انشغال روما ببعض الظروف الخارجية حتى تطورت العمليات إلى معارك بين الطرفين القرطاجي والنوميدي، ما دفع روما للتدخل بحجة خرق قرطاج لبنود معاهدة 201 ق.م، تتمثل أهمية الموضوع في كون هذا الإغليد النوميدي قد اعتبر بمثابة المنقذ لشعبه من الاستغلال القرطاجي وممارسة كافة أنواع الظلم عليه، وعلى هذا الأساس نطرح الإشكالية الآتية: دور ماسينيسا في استرجاع ممتلكات أسلافه بين الخيانة القرطاجية وحلفائها في مملكتي الماسيلو والماسيسيل وموافقته على الصداقة الرومانية. والنتائج المتوصل إليها هي استغلال القرطاجيين للظروف السلمية في بلاد المغرب للتوسع على حساب الأراضي الليبية وتحويلها للمنطقة إلى بؤرة للحروب الخارجية والداخلية.

الكلمات المفتاحية: ماسينيسا، قرطاج، روما، الماسيل، الماسيسيل.

Abstract:

Massinissa began to turn his attention eastwards towards the Carthaginian lands, after he had united Numidia and consolidated his authority over it, especially since the treaty of 201 BC. The borders between his kingdom and the Carthaginian possessions were not defined, but he was given the right to recover what his ancestors owned even within Carthaginian lands. He seized the first opportunity that was allowed to him and penetrated the region of Emporia in 193 BC. According to one historian, this operation was a test of the Carthaginian reaction and the position of the Roman Senate. The operations to

recover lands by Masinissa continued. He ignored Carthage's complaint to Rome and the latter's attempts to calm the situation between the two parties, taking advantage of Rome's preoccupation with some external circumstances until the operations developed into battles between the Carthaginian and Numidian parties, which prompted Rome to intervene under the pretext of Carthage's violation of the terms of the 201 BC treaty. The importance of the subject lies in the fact that this Numidian king was considered the savior of his people from Carthaginian exploitation and all kinds of injustice practiced against them. On this basis, we pose the following problem: Masinissa's role in reclaiming his ancestors' possessions amidst the Carthaginian betrayal and its allies in the Massilian and Massicilian kingdoms, and his agreement to Roman friendship. The resulting conclusions are that the Carthaginians exploited the peaceful conditions in the Maghreb to expand at the expense of Libyan lands, transforming the region into a hotbed of external and internal warfare.

Keywords: Masinissa, Carthage, Rome, masil, Macisil.

1. مقدمة:

عرف الاستيطان الفينيقي في شمال إفريقيا بمروره بمراحل اتسمت في بدايتها بالسلمية وكانت رحلات استكشافية للمنطقة، ثم بدأت بتأسيس مراكز تجارية وبفعل بعض العوامل بدأت في توطين سكانها القادمين من صور، وتسارعت عمليات الاستيطان إلى غاية تحولها لإمبراطورية كبيرة وسيطرتها على عدة أقاليم في غربي البحر المتوسط، حتى تصادمت مع الخصم الروماني الذي تمكن من هزيمتها لتغير مسار توسعاتها على حساب الأراضي الليبية، فتغيرت طبيعة العلاقة بينهما منذ 450 ق.م من سلمية إلى عدائية حاولت استغلال الليبيين في حروبها فتوالت عليها التمردات كل مرة، إلى حين وصول دور ماسينيسا الذي كان حليفا لها ضد الرومان ليتعرض لخيانة منها وتواطى في جهاز الحكم بأسرته المالكة، ما دفعه للتحالف مع الرومان ضدهم لاسترجاع حقه في العرش وأراضي أسلافه من قرطاج، وعلى ضوء هذا طرح الإشكالية الآتية: إلى أي مدى يمكن التماشي مع مقولة الخطأ الإستراتيجي لتحالف ماسينيسا مع روما لاسترجاع أراضي أسلافه؟

التوسع القرطاجي على الأراضي الليبية

1.2. مرحلة تأسيس المراكز التجارية:

تنوعت واختلفت العوامل التي ساهمت في انتقال الفينيقيين من بلدهم الأم إلى عدة محطات في غربي للبحر الأبيض المتوسط، بين عوامل سياسية، اقتصادية واجتماعية، فأُسست مراكز تجارية قد تعود بداياتها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، فكانت سنة 1101 ق.م تاريخ تأسيس مستوطنة أوتيكا في السواحل التونسية، و أسست على السواحل المغربية قبل هذه الفترة مستوطنة ليكسوس و قادس

بإسبانيا سنة 1110 ق.م¹، فتمكنوا من إقامة جسر بين حوضي البحر الأبيض مستغلين ظروفًا فتحت أمامهم أبواب البحر، أبرزها التراجع الذي شهده الأسطول الإيجي². كان الفينيقيون خلال هذه الفترة في محاولة لاستكشاف طبيعة سواحل الحوض الغربي للمتوسط، لأجل اختيار أماكن لإقامة محطاتهم ومستوطناتهم التجارية، خاصة وأنهم اكتشفوا على سواحلها المواد الخام والمعادن الثمينة، فتحوّلت المدن التي أسسوها فيما بعد إلى مستوطنات إسكان احتك فيها الليبيين بالفينيقيين، وسرعان ما استطاعت قرطاج بحكم موقعها الاستراتيجي وبعد ازدهارها أن تتزعم كل المستوطنات الفينيقية في غربي البحر الأبيض المتوسط تقريبًا منذ القرن السادس قبل الميلاد³.

2.2. مرحلة الاستيطان والتوسع:

تمكن الفينيقيون من تأسيس شبكة واسعة تعددت واختلفت بين المحطات التجارية والمراكز على طول السواحل الغربية للبحر الأبيض المتوسط، بلغ عددها في سواحل شمال إفريقيا حوالي ثلاثمائة محطة ومركز تجاري، وساهمت هذه الرحلات نحو غرب المتوسط في تمتين العلاقات بين الليبيين والفينيقيين، وبقيام تجارة رائجة مبنية على أساس الاستيراد والتصدير بين الطرفين، تطورت المحطات من قرى صغيرة إلى قرى كبيرة بتزايد عدد الفينيقيين، الذين حملوا معهم تنظيماتهم الاجتماعية والثقافية الأصلية تاركين وطنهم الأم، تربطهم علاقات سلمية مع السكان الأصليين⁴. تعتبر هذه المرحلة مكتملة للأولى والتحول الذي شهدته المستوطنات يعود بالدرجة الأولى إلى نمو قوة الفينيقيين، نتيجة ممارسة التجارة لأمد طويل وهو ما دفعهم فيما بعد لإرسال جاليات كبيرة إلى الغرب بالضبط إلى كل من سردينيا صقلية وإبيريّا لإنشاء مستوطنات أخرى⁵. تعد مرحلة الاستيطان الفينيقي في غربي البحر المتوسط متممة للتاريخ الفينيقي في الشرق، باعتبار أن هذه المستوطنات بقيت تابعة سياسيًا للمدن الفينيقية، تترأسها مدينة صور التي لا تزال في تلك الفترة تتلقى ضرائب سنوية وهدايا لمعبد ملقارت ولهذا عرفت هذه المرحلة بالعصر الفينيقي في المغرب⁶.

¹ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992، ص 42.

² وفاء بوغرارة، العلاقات الاجتماعية والثقافية بين المغرب القديم وشعوب البحر الأبيض المتوسط، أطروحة دكتوراه، الطاهر ذراع، جامعة أدرار، الجزائر، 2018، ص 136.

³ محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، رسالة دبلوم الدراسات العليا، هشام الصفدي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1978، ص 69.

⁴ وفاء بوغرارة، المرجع السابق، ص 188-139.

⁵ محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 43.

⁶ محمد الصغير غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2003، ص 69.

طرح المؤرخين عدة فرضيات في هذه القضية _بقاء العلاقة الوطيدة بين الفارين من صور وعلى رأسهم الأميرة عليسا_، جعلتهم يفكرون في الأسباب الخفية وراء هروب هذه الأميرة بعيدا عن السبب الذي تداولته المصادر التاريخية؛ وهو أن هروب عليسا كان بسبب طغيان أخيها بيغماليون وسيطرته على الحكم وقتل زوج هذه الأخيرة، من بين هذه الفرضيات التي طرحها المؤرخون بناء على عدة اعتبارات نذكر:

تصطدم فرضية تأسيس قرطاج نتيجة الصراع بين القصر والمعبد مع غياب العداء بين قرطاج وصور كما أكدت المصادر باختلافها على الاعتبار الذي كانت تكنه قرطاج لصور، وهذا يعتقد أن تأسيس قرطاج كان عملا مخطط له بشكل رسمي من حكومة صور، لعدة أسباب منها تزايد السكان إلى درجة الاكتظاظ ، إضافة إلى الضغط الذي كانت تعانيه من القوى المجاورة لها، كما نضيف إلى هذا دليلا أقوى يؤكد أن رحلة الأميرة عليسا كانت بدعم من صور ومساندتها لها، لتأسيس صور جديدة تعمل على خدمة مصالحها السياسية والاقتصادية ألا وهو أن أسطول عليسا والطبقة الأرستقراطية التي رافقتها ورجال المعبد عند مرورهم بقبرص قدمت لهم الولاء الديني، إذ أن الجزء الشرقي لهذه الأخيرة كان تابعا للنفوذ الفينيقي، كما أن أوتيكا سرعان ما استقبلت الوافدين الجدد بتقديم الهدايا لهم.¹

تشير أيضا إجراء مظاهر التكريم الرئيسية وإرسال رسل كل عام لتقديم قربان في معبد ملقارت بصور إضافة إلى هدايا قاربت في البداية عشر جميع مداخيل الجمهورية لصور، وبقيت السفن المحملة بالهدايا التي تبعث للآلهة لا تزال تذكرها المصادر قبل سنوات من تدمير قرطاج.²

اشتهرت العلاقة بين الليبيين والوافدين الجدد بالسلمية حيث نجحوا في كسب ود وصداقة السكان المحليين نظرا لعدم تدخلهم في شؤونهم الخاصة³، هذا ما شهدته الفترة الممتدة منذ وصول الفينيقيين إلى غاية القرن الخامس قبل الميلاد، لكن بمجرد ما أصبحت قرطاج قوة عظمى خلال القرن السادس وتزعمت كامل المستوطنات الفينيقية في غربي البحر الأبيض المتوسط حتى غيرت سياستها ضد الليبيين، والتي يمكن إبرازها في عدة نقاط من بينها، احتكار التجارة البرية والبحرية والصحراوية وفرض ضرائب كبيرة عليها مقابل الحماية، على غرار إقحامهم في حروبها ضد روما وذلك بمطالبتهم بضرورة تقديم أسلحة وجند ومؤونة لها، وبدأت تعامل السكان المحليين معاملة المواطنين من الدرجة الثانية مقارنة مع القرطاجيين وبهذا يظهر جيدا أسلوب الاستغلال الذي مارسه في حقهم.⁴

¹- وفاء بوغرارة، المرجع السابق، ص 143.

²- اصطيفاناكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، تر. محمد التازي سعود، ج. 1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ص 314.

³- محمد الصغير غانم، معالم التواجد...، المرجع السابق، ص 63.

⁴- وفاء بوغرارة، المرجع السابق، ص 152- 156.

يظهر أيضا أن العلاقات الليبية القرطاجية قد بدأت تأخذ منحى العداء من خلال تنكر قرطاج ما بين 475-450 ق.م لدفع الجزية التي فرضت عليها من قبل الليبيين، هذا الرفض جاء بعد مدة قصيرة من معركة هيمرا سنة 480 ق. م والتي حدت من نفوذ قرطاجة البحري وتراجع قوتها فبدأت في التوسع على حساب أراضي الليبيين.¹

مارست قرطاجة كل أنواع الاستغلال على الليبيين ما دفعهم كل مرة للتمرد عليها متحينين في ذلك فرص خسارتها في بعض الحروب بالبحر الأبيض المتوسط، خاصة هزيمة هيميلكون (Himilcon) عند مواجهته لسيراكوزة (Syracuse)، إذ استولى الليبيون من العبيد على تونس وحاصروا قرطاج، وقدر عددهم بمئتي ألف وهذا العدد حسب كامبس يدل على الرفض للخضوع لقرطاج، كما تكررت واقعة التمرد سنة 379 ق. م عندما انتشر الطاعون في قرطاج ونتجت عنه خسائر بشرية كثيرة، فحمل الليبيون كلهم السلاح ضد حكامها، فكانت قرطاج في كل مرة تحاول صد هذه التمردات وقمع حركات العصيان في المقابل كانت تتوسع وتعمل على دفع حدودها كل مرة للتوسع أكثر.²

يمكننا من خلال بعض الأرقام التي قدمتها المصادر إثبات جشع القرطاجيين وممارستهم الاستغلال في حق الليبيين، إذ قام هميلكار بنهب ما يقدر بـ 20000 رأس من البقر من الليبيين وفرض ألف وزنة فضية كغرامة عليهم فعرفت غارته هذه بأنها عملية نهب واسعة جعلها كمورد جديد لقرطاج حتى تواصل صراعها ضد روما، إلا أن عمليات كل من هميلكار وحانون العقابية التي أرادوا من خلالها ضم الرعايا الليبيين لقضيتها لم تلق نجاحا، ففي كل مرة تنطلق تمردات كان أشهرها وأخطرها تمرد الجند المأجور.³

تجدد بنا الإشارة أيضا إلى أن قرطاج قبل إبرامها السلم مع روما اشترطت على رعاياها تسليمها نصف المحصول، وفرضت عقوبات على كل من رفض ذلك، حتى النساء سلمن ما يملكن من مصاغ وحلي لدفع ديون تجار قرطاج الذين لم يستطيعوا دفعها أو لا يريدون تسويتها بالأحرى وتعويض مخلفات الأجور التي لم تدفعها قرطاج، رغم أن المصادر أكدت أن وقائع الحرب الأليمة أظهرت الفقر الشديد الذي كان يعانيه الفلاحين الليبيين، إلا أن حرب الجند المأجور انتهت بإعدام قائدها ماطو وإبادة الجند المأجور، كما أخضع الليبيون رعايا قرطاج لسيطرتها وأنزل هميلكار وحانون العقاب الشديد بالنوميين وهي فرصة سانحة للتوسع القرطاجي على أراضي الميكاتانوالماسيل، وقام هاميلكار بعد ذلك باستعراض قواه بعبوره مضيق جبل طارق من إفريقيا إلى إسبانيا مارا بمملكتي

¹ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي...، المرجع السابق، ص 53.

² غابريال كامبس، في أصول بلاد البربر ماسينيوس أو بدايات التاريخ، تر. العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2012، ص 51.

³ غبريال كامبس، في أصول بلاد البربر...، المرجع السابق، ص 57-59.

الماسيلوالماسيسيل ومملكة المور سنة 238 ق. م محاولا بذلك إبراز القوة المتجددة للجيش القرطاجي، وكان قد ولد للعائلة الماسيلية في هذه الأثناء أمير يدعى ماسينيسا ووالده الملك غايا.¹

3. النزاع على العرش الماسيلي ورحلة ماسينيسا لاسترجاع أراضي أسلافه

1.3 اعتلاء ماسينيسا العرش:

تجدر بنا الإشارة بادئ ذي بدء إلى اختلاف الكثير من المؤرخين حول مسألة تحالف ماسينيسا مع الرومان لإسقاط قرطاج ووصوله إلى سدة الحكم في العرش الماسيلي، إذ يراها بعضهم خيانة في حين يرى آخرون أنها ردة فعل للدفاع عن حقه المسلوب منه غصبا، إذ يدفعنا هذا الاختلاف إلى سرد تفاصيل الأحداث للوصول إلى بعض النقاط التي يمكن أن تزيل شيئا من الغموض عن هذه القضية.

كان ماسينيسا من الفترة الممتدة من 212-206 ق. م قائدا للجيش القرطاجي في إسبانيا وكانت مملكة الماسيل خلالها حليفة لقرطاج، وبوفات الملك غايا سنة 207 ق.م بلغ ماسينيسا حوالي 30 سنة من عمره، ولم يكن مؤهلا لتولي العرش إذ انتقل إلى عمه أوزولاس عملا بالقاعدة _ انتقال الحكم إلى الأكبر سنا في العائلة _ لكنه سرعان ما توفي ليستلم ابنه كابوسا الحكم وكان انتقال الحكم لحد اللحظة عاديا²، إلى أن استغل مازيتول الفرصة وأطاح به ليستولي على العرش الذي عين عليه لأكوماز ليحتفظ لنفسه بالوصاية، وبهذا اخترقت قاعدة انتقال الحكم واغتصب حق ماسينيسا في تولي العرش.³

اكتشف ماسينيسا أن لقرطاج وسيفاكس يدا في كل ما حدث وأدرك أن قرطاج التي يدافع معها ضد الرومان انتهجت سياسة اللعب على الحبلين بتخطيط من مجلس الشيوخ القرطاجي، فدفعت ماسينيسا وأرغمته على الاتجاه إلى الخصم المتمثل في الرومان.⁴

انطلق ماسينيسا من قادس بإسبانيا عام 206 ق. م عائدا إلى الديار فعبّر المضيق إلى مملكة المور، التي تلقى من ملكها باغا دعما بعدد من الجنود قوامه 4000 جندي رافقوه إلى حدود مملكته، فوجد في استقباله 500 فارس من رعايا المملكة فعزم على استرجاع حقه بالقوة، فكانت أول مواجهة بينه وبين لأكوماز الذي التحق بسيفاقس في سيرتا، هاجم ماسينيسا لأكوماز فتشتت جيشه ما أدى به للفرار باتجاه قرطاج واسترجع ماسينيسا ثقة رعايا والده، وللقضاء على الخلاف الذي دب العرش النوميدي وقطع آمال قرطاج التي كانت سببا في الخلاف، عرض ماسينيسا الصلح على لأكوماز ومازيتول مقابل استرجاع ممتلكاتهما فقبلا الطلب، وبهذا فاز ماسينيسا واعتلى العرش النوميدي ولم تتحقق طموحات أشفاط قرطاج، الذين ألغوا تحالفهم مع مملكة الماسيل وحاولوا ضربه بتحالفهم مع

¹ - نفسه، ص 60- 62.

² - محمد العربي عقون، ماسينيسا (238-148 ق. م) من كفاحه لاستعادة حقه في العرش الماسيلي إلى بناء الوحدة النوميديّة، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ع 22، 2010، ص 38-104، ص 87.

³ - محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46 ق. م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص 15.

⁴ - محمد الصغير غانم، معالم التواجد الفينيقي...، المرجع السابق، ص 243.

سيفاقس ملك مملكة الماسيسيل الذي كان عدوا سابقا للقرطاجيين وتحالف ضدهم مع الرومان منذ 213 ق. م.¹

2.3 استرجاع ماسينيسا لأراضي أسلافه:

تحيلنا فكرة أوردها كامبس قبل تطرقنا إلى الحديث عن مراحل استرجاع ماسينيسا لأراضي أسلافه، إلى الإشارة للأسباب التي دفعته إلى القيام بذلك من خلال عرضه للامتداد القديم للأراضي الماسيلية وقد ذكرها على النحو الآتي:

يذكر كامبس في حديثه عن ضريح المدغاسن أن الأمير الذي أقيم له هذا الصرح، يمتد إقليمه إلى غاية أقرب مدينة استوطنها الفينيقيون خلال القرن الثالث وهي سيرتا، ومن المرجح أنه بسط حكمه إلى ما بعدها ناحية الساحل والشرق، فكان بذلك الماسيليون يستوطنون إقليم سيرتا وقوتهم تكونت ما بين هذه الأخيرة والأوراس، حتى قبل أن تنحصر مملكة الماسيل إلى شريط ضيق بين إقليم قرطاج ومملكة الماسيسيل، شملت في جهة الغرب منطقة سيرتا وإلى الجهة الشرقية وبالضبط الظهير التونسي غطت هذه المملكة القسم الكبير من حوض بكردا (مجردة)، ولهذا لا يظهر أن النزاعات التي دامت سنوات طويلة بين ماسينيسا وقرطاج عبرت عن طمع هذا الإغليداليي بل تعود لمطالب ترابية لها مبرراتها ولم يتوانى عنها يوما، ففي حين كانت الماسيل ضيقة نسبيا في جزئها الشمالي، إلا أنها كانت تضم في جزئها الجنوبي أقاليم كبيرة امتدت إلى ما يسمى حاليا بطرابلس الغرب وتشمل مدينة لبسيس.²

عملت قرطاج على استمالة سيفاقس إلى صفها واقناعه بأن ماسينيسا يشكل خطرا على مملكة الماسيسيل، فقرر سيفاقس اجتياح أراضي الماسيل فهزم ماسينيسا سنة 205 ق. م والذي أصبح يشكل خطرا على الأراضي القرطاجية بنهبها، فطلبوا من سيفاقس وضع حد لأعمال ماسينيسا هذا الأخير الذي أصبح مطاردا من قبل أتباع سيفاقس فاضطر للانتقال إلى إقليم السيرت الصغير إلى غاية نزول ليليوس (C. Laelius) في هيبو فطلب منه ماسينيسا ضرورة الإسراع بالحملة على إفريقيا مادام سيفاقس مشغولا بإخماد الثورات.³

نزلت القوات الرومانية في ضواحي أوتيكا إلا أنها خشيت على نفسها لجهلها ببلد لا تعرف عنه شيئا، مما دفع سكيبون إلى استدعاء ماسينيسا للقدوم إليهم والذي قدم لهم يد العون لمعرفته الواسعة بالميدان⁴، وكانت أول معركة بينهم وبين القرطاجيين وحليفهم سيفاقس هي معركة السهل الكبرى التي

¹ محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 88-89.

² غابرييل كامبس، البربر ذاكرة وهوية، تر. عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2014، ص 136-138.

³ محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي...، المرجع السابق، ص 18-19.

⁴ محمد الهادي حارش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ج 2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2023، ص 10.

كان فيها النصر حليف الرومان وماسينيسا، فر على إثرها سيفاقس عائدا إلى عاصمته سيرتا ثم قرر محاصرة ماسينيسا وحليفه الروماني لاليوس، ف وقعت بينهما معركة شهيرة سميت بمعركة سيرتا شهر جوان 203 ق. م خسر فيها سيفاقس ووقع أسيرا في يد ماسينيسا، الذي دخل سيرتا واتخذها عاصمة له وسلم سيفاقس للقائد الروماني سكيبيون.¹

كانت هذه هي نهاية سيفاقس التي أسفرت عن اعتراف روما بماسينيسا ملكا على نوميديا كلها، وخسرت قرطاجة أكبر حليف لها في المنطقة والذي سيكون من أسباب هزيمتها في معركة زاما سنة 202 ق. م.²

تحيلنا قضية وصول ماسينيسا للحكم إلى إشكالية مفادها أنه نصب على الحكم بتدخل الرومان، وطرح الباحثين سؤالا في الموضوع ما إذا كان ماسينيسا قد اعترف به الرومان ملكا أو نصبه الرومان ملكا؟، إذ تحدث محمد الهادي حارش عن إشارة مهمة للمؤرخ تيتيوس ليفيوس، حول حادثة مرافقة لايوليوس ماسينيسا عند ملاحقته لسيفاقس وانتصاره عليه في معركة السهول الكبرى شهر جوان 203 ق. م، تجيب عن التساؤل المطروح وذكر حارش نقلا عن ليفيوس: (في الفترة نفسها وصل ماسينيسا ولايليوس إلى نوميديا بعد خمسة عشر يوما من السير، حيث نصب الماسيليون ماسينيسا على عرش أبيه، وكان سعيدا جدا باسترداده بعد غياب طويل)، فهذه الإشارة تؤكد إعادة تنصيب ماسينيسا من طرف الماسيل بعيدا عن أي تدخل روماني، بل إن سكيبيون قد اعترف به ملكا وهو القرار الذي صادق عليه مجلس الشيوخ الروماني دون تحفظ.³

كانت قرطاجة بعد سقوط سيفاقس مضطرة إلى طلب هدنة ووضع حد للحرب بالتفاوض مع سكيبيون، إلا أن نزول حنبعل صيف 203 ق. م بلمطة تسبب في نقض الهدنة وسرعان ما التقى الطرفين مجددا في ميدان الحرب، الذي جمعهم هذه المرة في زاما وانتهت هذه المعركة بهزيمة حنبعل بتاريخ 19 أكتوبر 202 ق. م، وفكان انتصار سكيبيون بفضل المساعدات التي قدمها ماسينيسا، وعقدت معاهدة زاما سنة 201 ق. م تعرضت على إثرها قرطاج لعقوبات قاسية، في حين أنها فتحت الأبواب في إحدى بنودها أمام ماسينيسا لاسترجاع كل أراضي أسلافه من قرطاج التي منعت من إعلان أي حرب في إفريقيا دون إذن من روما.⁴

كانت توسعات ماسينيسا في بدايتها قد سلكت اتجاهين متعاكسين بداية من مدينة سيرتا، فكان أولهما نحو الغرب على حساب الأراضي الماسيسيلية، والثانية كانت شرقا على حساب أملاك قرطاجة⁵.

¹ - الربيع عولي، تاريخ ممالك المغرب القديم من البدء إلى عشية الفتوحات الإسلامية (310 ق. م 647 م)، منشورات

مخير بحث- الجزائر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع، جامعة باتنة 1، الجزائر، 2023، ص ص 73- 74.

² - محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم بحوث ودراسات، دار الحكمة، الجزائر، 2003، ص 35.

³ - محمد الهادي جارش، دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص ص 10- 11.

⁴ - محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي...، المرجع السابق، ص ص 21- 22.

⁵ - عولي الربيع، المرجع السابق، ص ص 77- 78.

أما عن الظروف التي توسع فيها ماسينيسا في أراضي الماسيسيل فلا يعرف عنها الكثير واختلفت المصادر حولها حيث أشار بعضها إلى سيطرة ماسينيسا على مملكة الماسيسيل كلها ما بين سنتي 203- 202 ق.م الميلاد، في حين استبعد البعض ذلك نظرا لانشغال هذا الأخير بمعركة زاما عن عمليات الاسترداد، وورد في بعض المصادر أن ماسينيسا اكتفى بإخضاع المناطق الأكثر ثراء كقيرطا وضواحيها في البداية ثم الاستيلاء على كل المملكة نظرا للعزلة الإقليمية التي عاشها فيرمينا ابن سيفاقس، رغم أن هناك مصادر أشارت إلى استمرار حكم فيرمينا على بعض المناطق من مملكة أبيه سنة 202 ق.م ومحاولته نجدة حنبعل في معركة زاما وبعدها حاول التقرب من الرومان للحصول على لقب الحليف، لكن العزلة التي عانى منها فيرمينا في الغالب حالت بينه وبين توحيد ماسينيسا للملكتين.¹

توجه ماسينيسا بعد توحيد نوميديا شرقا مواجهها بذلك القرطاجيين، فباشر أول عمليات الاسترداد بحملة شنها على أحد المتمردين عام 193 ق.م، ثم اجتاحت بعدها منطقة أمبوريا وفرض على بعض المدن في منطقة طرابلس ضرائب كبيرة اعتبرها القرطاجيون إهانة لهم، كما استرد ماسينيسا عام 182 ق.م أراضي كان والده غايا قد استرجعها وردها لهم سيفاقس عند استلائه على مملكة الماسيل، تواصلت عمليات الاسترداد وتمكن ماسينيسا سنة 174 ق.م وضم أكثر من 70 مدينة كانت تابعة لقرطاج في شمال غربي تونس حاليا، وهو ما دفع هذه الأخيرة إلى تقديم شكوى لروما التي تحركت هذه المرة لكن لصالح ماسينيسا.²

واصل ماسينيسا سيطرته على إقليم أمبوريا سنة 162 ق.م أما عام 153 ق.م فقد امتدت توسعته إلى الأراضي القرطاجية فاستولى على السهول الكبرى وهنا قدم وفد من مجلس الشيوخ الروماني لمعاينة الوضع بعد احتجاج قرطاج وتوالت بعدها الأحداث لتعلن روما الحرب على قرطاج بحجة خرقها لبند من بنود معاهدة زاما وهي عدم القيام بأي حرب في إفريقيا وكانت سنة 149 بداية الحرب البونية الثالثة.³

تجدد بنا الإشارة إلى أنه عند احتضار ماسينيسا أواخر سنة 149 ق.م كانت حينها الحرب البونية الثالثة قد بدأت ربيع ذلك العام ومرت بتقلبات لم يتوقعها مجلس الشيوخ الروماني، الذي سعى لإعلان الحرب على قرطاج متخوفا من قوة ماسينيسا المتنامية يوما بعد يوم إذ كان على وشك احتلال قرطاج عندما حاصر مدينة أوردوسكوبة سنة 150 ق.م، مما اضطر قرطاج للتوسط بروما بهدف إيقاف الحرب فكانت هذه هي القطرة التي أفاضت الكأس، حيث أدركت روما أن الصراع الذي دام أكثر من نصف قرن سيحسم بسيطرة الملك ماسينيسا، وكانت الوسيلة الوحيدة لغلق مسار السيطرة الكاملة لماسينيسا على بلاد المغرب هي إزاحة قرطاج من الوجود، وأعلنت روما بداية الحرب البونية

¹ - محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي...، المرجع السابق، ص ص 22، 24.

² - الربيع عولمي، المرجع السابق، ص ص 78- 79.

³ - محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي...، المرجع السابق، ص ص 27- 28.

الثالثة وانتقل حينها ماسينيسا لعالم الأموات، وذكرت بعض المصادر أن ماسينيسا قبل موته غضب من روما لتدخلها، وقد حز في نفسه أن يكون هو من أركع القوة العسكرية القرطاجية.¹ تعد مسألة خلافة الملك ماسينيسا بعد وفاته سنة 148 ق. م من أهم القضايا التي تثار حولها تساؤلات عدة، ذلك أن الفكرة السائدة عن الموضوع هي ترك مهمة الخلافة في تصرف سكيبيون الذي قسم الحكم على أبنائه الثلاثة.

طرحت عدة تساؤلات في هذا الصدد منها هل كان ماسينيسا متيقنا من أن أبنائه سيتمكنون من إكمال مساره الرامي لتحرير بلاد المغرب كلها من الهيمنة الأجنبية دون اصطدامهم بمصالح روما في المنطقة، أو على الأقل سيحافظون على الإرث الكبير الذي استعاده والدهم، دون أن يثير ذلك هواجس حلفائه الرومان أو أطماع المتطلعين منهم استغلال الظروف المترتبة عن فوز جيشهم في إفريقيا، لا يمكن الحسم أن هذه الاحتمالات قد تصورها ماسينيسا وهو يرى بداية نهاية قرطاجة من الوجود، لأنه يجهل النوايا الحقيقية لهذا الملك ولا يتوفر من الروايات التاريخية ما يمكن أن يساعدنا في ترجيح هذا الرأي أو ذاك، وترك هذا الصمت باب الافتراضات مفتوحا أمام المؤرخين إذ تباينت تفسيراتهم لمواقف ماسينيسا واختلفت تقديراتهم لمدى ما كان يتمتع به الرجل من بعد النظر أو حصافة الرأي.²

حدث نقاش كبير حول الاعتبارات التي فرضت الحكم الثلاثي على المملكة النوميديّة، إلا أن حارث نقلا على كامبس رأى أن هذا النوع من الإدارة الجماعية، قد تكون مستمدة من المؤسسات الليبية مثلما بينته بعض التصورات السياسية، التي أكدت عدة نقاط منها تكرار هذا النوع من الحكم على إثر وفاة مكوسن الذي ترك الحكم لابنيه أذربعلوهيمصاليوغرطة ابن عمهم مصطنبل، كما تكرر ذلك مع وفاة غودا أخو يوغرطة، إذ ذكرت المصادر حكما ثلاثة آخرين هم هيرباص، هيمصال الثاني وماسينيسا الثاني، كما عرفت المدن النوميديّة ثلاثة حكام وهو حال مكثّر، قيرطا، ميلاف والقل، هذا بالإضافة إلى اتفاق البونيقيين والرومان في إسناد إدارة المدن إلى هيئة ثنائية، يجعلنا نرى في الحكم الثلاثي نظاما وتقليدا خاصا بنوميديا.³

4. انعكاسات عمليات استرداد ماسينيسا للأراضي أجداده

تجدد بنا الإشارة إلى أنه قد يبدو للوهلة الأولى أن نتائج عمليات الاسترداد التي قام بها ماسينيسا قد تبدأ بعد آخر عملية نفذها، إلا أنه لو عدنا إلى بداية الأحداث مع هذا العاهل النوميدي فإننا نجده من بين الأهداف التي سطرها منذ البداية، كانت استعادة حقه في العرش وممتلكات أجداده التي انتزعتها قرطاجة عنوة، ودليل ذلك سرد بعض المصادر لأحداث الحروب التي كانت بين مملكة الماسيل وقرطاج وتمكن غايا من انتزاع بعض الأراضي من هذه الأخيرة قبل أن تربطهما علاقات صداقة، إذ كان

¹ - محمد الهادي حارث، دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص 14- 15.

² - محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص 39- 40.

³ - محمد الهادي حارث، دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص 17- 18.

لحروب ماسينيسا انعكاسات على كل الأطراف المتنازعة سواء روما أو قرطاج ومملكة الماسيسيلوماسينيسا بحد ذاته، ويمكننا اختصارها كالآتي:

أدت خيانة قرطاج لماسينيسا الذي كان حليفا لها على الأراضي الإسبانية قائدا لفرقة نوميدية تحارب ضد الرومان إلى خسارتها له، لكن في المقابل صار حليفا لروما التي رأت فيه الشخص المناسب الذي سيكون مساعدا لها لنقل ميدان المعركة من ميادينها المعتادة في شبه جزيرة إيبيريا وإيطاليا إلى الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط أي إلى منطقة النفوذ القرطاجي في المغرب¹، وتحقق ذلك بالفعل سنة 204 ق. م إذ لم يطل انتظار ماسينيسا الذي كان متواجدا بخليج السيرت حتى وصل القائد ليلبيوس إلى هيبوريغيوس (عنابة) وحضرًا معا لزول القائد سكيبيون بعد ذلك بالقرب من أوتيكا². تعتبر فكرة نقل الحرب إلى إفريقيا من أفكار ماسينيسا وتنفيذها من طرف الرومان هو من أحد الأدلة التي تشير إلى أن ماسينيسا لم ينصب على عرش أبيه بدخل من روما، إنما اعترفوا به ملكا وصادق مجلس الشيوخ الروماني على كل المبادرات التي سيتخذها سكيبيون مستقبلا لإرضاء ماسينيسا، ونقل الحرب لشمال إفريقيا من بينها، وهو الدور المحوري الذي قام به العاهل النوميدي في هذه الحرب، واعترف سكيبيون بأنها كانت نصيحة قيمة من ماسينيسا حتى يدفع حنبعل لمغادرة إيطاليا، وهي دليل على الاستراتيجية العسكرية التي كان يتمتع بها ماسينيسا، كما أنه استعجل قدوم سكيبيون وضرورة سرعته في الإقلاع من صقلية عند لقائه بليلبيوس في هيبو³.

توالت الهزائم على القرطاجيين وحليفهم ملك مملكة الماسيسيل بعد التحالف الروماني مع ماسينيسا فقد هزم صديقه لوسيفاقس على يد ماسينيسا وسكيبيون في معركة السهول الكبرى التي كانت كارثة حقيقية عليهما، ثم انتصر ماسينيسا مرة أخرى على خصمه سيفاقس في معركة سيرتا التي كان من نتائجها أسر هذا الأخير الذي دخل به ماسينيسا سيرتا وهو مقيد بالأغلال⁴.

كان لماسينيسا أيضا الفضل في الانتصار بمعركة زاما 202 ق. م التي هزم فيها حنبعل واعترفت روما بماسينيسا ملكا للماسيل، فتمكن بعدها من توحيد نوميديا وتوسيع حدود المملكة الشرقية على حساب قرطاج التي منعت من الدفاع عن نفسها نزولا لما جاء في نصوص معاهدة زاما 201 ق. م، فبلغ بحدود نوميديا الخليج الكبير (السيرت) في وسط ليبيا الحالية، فعرفت نوميديا أكبر توسع في إقليمها السياسي على مر التاريخ⁵.

¹ - محمد البشير شنيقي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق. م/40 م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص 25.

² - الربيع عولمي، المرجع السابق، ص 72-73.

³ - محمد الهادي حارش، دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص 12.

⁴ - محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 96.

⁵ - محمد البشير شنيقي، دراسات في التاريخ والآثار القديمة بالجزائر وبلاد المغرب، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص 92.

كان الصدام بين قرطاجة وماسينيسا سببا في تدخل روما في الأحداث بالمنطقة والتي ستنتهي بإعلان الحرب البونيقية الثالثة، إلا أنه لم يكن السبب الحقيقي لهذا التدخل، إذ كان الرومان متخوفين من تزايد قوة ماسينيسا في المنطقة وهذا ما يستنتج من خطاب أحد أصدقاء سكيبيون أواخر الحرب البونيقية الثانية أمام مجلس الشيوخ حيث دعا إلى عدم المغالاة في تقوية ماسينيسا فقال : (ماسينيسا حقيقة صديق الشعب الروماني، لكن يجب ألا نغالي في تقويته، والأصح أن نراعي مصلحة الشعب الروماني)، لأن روما خشيت قيام دولة إفريقية قوية قد تقف في وجه المصالح الرومانية، فكان تدخل روما يهدف أساسا لوضع حد لطموح ماسينيسا وهذه القوة الجديدة المتنامية وليس الوقوف في وجه قرطاجة المهارة.¹

4. خاتمة:

نستنتج من خلال هذه الورقة البحثية أن:

- التواجد الفينيقي في شمال إفريقيا وبالأستناد إلى عدة معطيات تاريخية كان هدفه منذ البداية الغزو بطريقة غير مباشرة، والتوسع على حساب الأراضي الليبية والاستغلال الذي مارسوه في حق سكانها أبسط دليل على ذلك.
- رحلة الأميرة عليسا ما كانت إلا وليدة رحلات الاستكشاف والارتداد الأولى التي كان يقوم بها الفينيقيون، وقد أثبت ذلك بقاء العلاقات بين قرطاج وصور إلى غاية الفترة قبل الحرب البونية الثالثة بقليل.
- كان انضمام سيفاقس لصف قرطاج بتحريض منها على الوقوف في وجه ماسينيسا، بعدما كان هذا الأخير غير مهتم بما يحدث في الداخل الماسيلي وشؤون حكمهم.
- الخيانة التي تعرض لها ماسينيسا من كل الجهات لم تدع له سبيلا آخر لاسترجاع حقه المسلوب غصبا، إلا بتحالفه مع الرومان.
- وصول ماسينيسا لسدة الحكم حال دون ابتلاع قرطاج للملكة الماسيل وضمها لممتلكاتها، في ظل تولي مازيتولولكوماز اللذين كانا رهينا تطبيق ما يمليه عليهم الأشفاطالقرطاجيين.
- مجرد التأمل في مساحة الأراضي الشاسعة التي ضمها ماسينيسا طيلة فترة حكمه شرقا وغربا ونواياه لضم قرطاج وعدم خضوعه للسيطرة الرومانية، يجعلنا نعتقد أن التحالف الروماني مع الإغليدالنوميدي على الأغلب كانت برؤية بعيدة المدى لهذا الملك المحنك سياسيا وعسكريا ولم يكن مستقبل مملكته رهينة لقوة روما على قرطاج.

التوصيات:

- دائما ما يعد الحديث عن التوسع الفينيقي في شمال إفريقيا وكذا موضوع الملك النوميدي ماسينيسا من النقاط الحساسة جدا في تاريخ المنطقة، نظرا لاختلاف إيديولوجيات المؤرخين الذين كتبوا عنها سواء

¹ - محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي...، المرجع السابق، ص 30.

القدامى منهم أو حتى المحدثين، لذا لا بد من التعامل مع مثل هذه المواضيع بحذر حتى لا ينساق المؤلفين وراء أفكار تُشَرِّعُن للإيديولوجيات الاستعمارية في المنطقة.

5. بيبليوغرافيا:

1- قائمة المراجع:

1. الربيع عولي، تاريخ ممالك المغرب القديم من البدء إلى عشية الفتوحات الإسلامية (310 ق. م 647 م)، منشورات مخبر بحث- الجزائر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع، جامعة باتنة 1، الجزائر، 2023.
2. محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم بحوث ودراسات، دار الحكمة، الجزائر، 2003.
3. محمد البشير شنيقي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق. م/40 م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.
4. محمد البشير شنيقي، دراسات في التاريخ والآثار القديمة بالجزائر وبلاد المغرب، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017.
5. محمد الصغير غانم ، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2003.
6. محمد الهادي جارش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، ج 2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2023.
7. محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992.
8. محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203- 46 ق. م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.

2- المراجع الأجنبية والمترجمة:

1. اصطيافاناكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، تر. محمد التازي سعود، ج. 1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.
2. غابريال كامبس، في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ، تر. العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2012.

3. غابرييل كامبس، البربر ذاكرة وهوية، تر. عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2014.

3- المذكرات والرسائل والأطروحات:

1. محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، رسالة دبلوم الدراسات العليا، هشام الصفدي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1978.
2. وفاء بوغرامة، العلاقات الاجتماعية والثقافية بين المغرب القديم وشعوب البحر الأبيض المتوسط، أطروحة دكتوراه، الطاهر ذراع، جامعة أدرار، الجزائر، 2018.

4- المجلات والدوريات:

1. محمد العربي عقون، ماسينيسا (238- 148 ق. م) من كفاحه لاستعادة حقه في العرش الماسيلي إلى بناء الوحدة النوميديّة، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ع 22، 2010.